فلسطين في استراتيجية حزب الله

بروفيسور عبد الستار قاسم

يبدو أن البعد الفلسطيني في استراتيجية حزب الله غائب علنيا إلى حد كبير. حزب الله لا يتحدث مباشرة عن نواياه بالنسبة للقضية الفلسطينية إلا فيما يخص اللاجئين في لبنان، والمحللون يحاولون تجاوز هذه المسألة ويركزون على مسائل مثل تبادل الأسرى ومزارع شبعا وخرائط الألغام المزروعة في الجنوب اللبناني. ماذا لو تم تحرير الأسرى، وسلمت إسرائيل مزارع شبعا وخرائط الألغام؟ الحزب باق، وسيستمر في التسلح والاستعداد.

حزب الله هو لبناني المنشأ ولبناني العضوية، وإلى حد كبير، لبناني الخطاب، لكنه حزب إسلامي لا يؤمن بالتجزئة ولا بالدولة القطرية ولا بالحدود القائمة حاليا بين البلدان العربية، وهو لا يؤمن بخصوصية الهموم التي تطغى حاليا على اهتمامات العرب والمسلمين. إنه حزب يتبنى العقيدة الإسلامية، ويتخذ الفكر الإسلامي قاعدة لانطلاقه نحو حل المشاكل وتشكيل العلاقات الداخلية والخارجية، وتطبيق قواعد الشريعة في سير الحياة اليومية للمسلمين. على مختلف المستويات العقدية والفكرية والشرعية، يرى حزب الله أن القدوة الأخلاقية هي أساس الإقناع وأساس النجاح في مختلف مجالات الحياة.

من ناحية العقيدة، يؤمن حزب الله أن هموم المسلمين العامة هي هم كل مسلم حقيقي على مستوى الأفراد والجماعات. (المسلم الحقيقي هو المؤمن الذي يعمل صالحا، أو ذاك الذي يصدق عملُه قولَه) السيطرة الغربية على العرب والمسلمين عبارة عن هم عام، وكذلك نهب الثروات العربية والإسلامية، والتغلغل الصهيوني في المنطقة العربية–الإسلامية، والحروب المحلية التي تنفجر مثل الحرب في السودان والحرب حول الصحراء الغربية، الخ. الهم العام سواء كان في درء خطر أو إحراز تقدم مرتبط بالعقيدة مباشرة لأن من لا يهتم بأمر المسلمين ليس منهم.

قضية فلسطين هي الحالة الأكثر مأساوية على الساحة الإسلامية، ويرى الحزب أن كل الجهود يجب أن تتوجه نحو تحرير فلسطين واستعادة الحقوق الفلسطينية والإسلامية. فلسطين، بالنسبة للحزب، عبارة عن ارض إسلامية مقدسة، وهي مسرى الرسول عليه الصلاة والسلام، ومنها معرجه، وقد خص الله سبحانه وتعالى بيت المقدس وما حوله بقدسية ثابتة نصا بالقرآن الكريم. إنه يرى أن واجبه الإسلامي يحتم عليه وعلى كل المسلمين سنة وشيعة حشد كل الطاقات والاستعداد لليوم اللقاء من أجل تحرير فلسطين. وهو لا يؤمن بأن ارض المسلمين خاضعة للمساومة أو للتفاوض أو للاستبدال أو التعويض أو المهادنة.

فلسطين موجودة في قلب استراتيجية حزب الله، لكنها من الناحية التكتيكية يمكن أن تنتظر بسبب الظروف المادية والعسكرية للحزب، وبسبب الأوضاع الداخلية اللبنانية. من استراتيجية الحزب الحرص على التوازن بين الكلام والفعل، وهو يعمل دائما على ألا تكون كلماته أكبر من قدرته على الفعل، بل يحاول أن يظهر بكلمات أدنى بكثير من قدراته الفعلية الحقيقية. خبرنا هذا في حربه الأخيرة التي أثبتت أن فعله الميداني كان متفوقا جدا على مدلولات الكلمات التي تضمنها خطابه السياسي قبل الحرب وأثناءها.

أعتقد أن حزب الله يرى أنه من الحكمة حسم بعض الأمور قبل الحديث عن تطلعات استراتيجية، وذلك انسجاما مع سياسته في تحجيم الكلمات وفق القدرات. أوجز هذه الأمور بما يلي:

أولا: يريد أن يطمئن حزب الله إلى أن منافذ المدد والدعم له موجودة ويمكن الدفاع عنها ومواصلة عطائها. لا يتأتى هذا الاطمئنان فقط من خلال حسن نوايا الدولتين المعنيتين وهما سوريا وإيران، وإنما من خلال قوتيهما وقدرتيهما على مواجهة التحديات السياسية والاقتصادية والعسكرية.

ثانيا: الاطمئنان إلى القوة الذاتية وأنها قادرة على التحدي والصمود وصد الأعداء. هذا أمر كان يتطلب الوقت والجهد والاختبار. لا تتأتى القوة العسكرية والأداء العسكري المتميز آنيا، وإنما لا بد من الإعداد والاستعداد واختبار هذه القوة. مسالة الاختبار لا تتعلق بحزب الله وحده وإنما بالعدو الذي يواجهه والذي لا توجد ضمانة أكيدة حول الموعد الذي يختاره للهجوم.

ثالثا: طمأنة الأطراف اللبنانية المختلفة بأن حزب الله على الساحة الداخلية عبارة عن حزب سياسي فقط، وهو يشارك في الحياة العامة اللبنانية كغيره من الأحزاب والحركات، وبأن السلاح ليس للاستعمال الداخلي أو تهديد أطراف داخلية وإنما لمواجهة إسرائيل أو أي جهة خارجية تحاول الاعتداء على لبنان. عمل الحزب عبر سنوات على تكريس أخلاقيات حمل السلاح بحيث أنه أخفى سلاحه تماما، ولم يلجأ إلى تهديد احد، ولم يتم استعماله لحل مشاكل داخلية.

رابعا: طمأنة الشعوب العربية بأن سلاح المقاومة ليس سلاحا شيعيا أو سنيا، وإنما سلاح إسلامي عربي لا يهدف إلا إلى تحقيق المصالح العربية. وإذا كانت إيران جزءا من معادلة القوة فذلك ليس بهدف الهيمنة على العرب وإنما من أجل المساعدة في تحرير العرب من نير الهيمنة الغربية والإسرائيلية.

خامسا: البحث عن الاستجابة الفلسطينية لتطلعاته الاستراتيجية ذلك لأن حزب الله لا ثقة لديه بأن المقاومة الفلسطينية مقاومة جادة وتتبع الأساليب العلمية في الوصول إلى الهدف. إنه يأمل بانقلاب أمني فلسطيني ينتهي إلى مقاومة فعالة ترهب العدو الإسرائيلي.

ليس من الفطنة أن يظن أحد أن حزب الله يحشد ويتسلح بسبب مزارع شبعا، ويخطئ من يظن أن الحزب سيلقي السلاح بعد تحرر شبعا. قال أمين عام الحزب بأن مساحة لبنان حوالي 10450 كم2. هذه مساحة لا تكتمل إلا بعدد من القرى الموجودة في شمال فلسطين المحتلة عام 1948. وبعدها سيربط الحزب السلاح بعودة اللاجئين الفلسطينيين، وهكذا.